11 me Année No. 533

Lundi - 20 - 9 - 1943

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٨٠ في مصر والسودان
١٢٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ١٥ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٥٣٣ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٠ رمضان سنة ١٣٦٢ — الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٣ » السنة الحادية عشرة

الفهـــرس

واجب الكاتب المصري

للأستاذ عباس محمود العقاد

للدعوة إلى مذهب من المذاهب الاجتماعية أو السياسية طريقان :

أحدهما طريق صريح ، وهو التنويه بفضائل المذهب الذي تدعو إليه ، وتجريد المذاهب التي تخالفه من أمثال هذه الفضائل

والطريق الثاني غير صريح ، وهو الإكثار من ذكر العيوب التي يفهم القارىء أنك توجهها إلى نظام اجتماعي بعينه ؛ ثم السكوت عن إسناد أمثال هـذه العيوب إلى الأنظمة الأخرى ، كأنها براء منها

فإذا كنت تعيش في ظل الديمقراطية وأكثرت من الكلام عن البطالة والجوع والمرض وغيرها من العيوب الاجتماعية ، فقد يفهم القارىء من ذلك أنك تقدح في الديمقراطية ولا تمس غيرها بمثل ما تعيبه عليها

ويسرى هذا الفهم إلى ذهن القارىء في الزمن الذي نعيش فيه خاصة ، لأنه زمن الصراع بين المذاهب الاجتماعية والأمم التي تدين بكل منها ، حتى جاز أن يقال إن نتيجة الحرب الحاضرة هي نتيجة الصراع بين هذه المذاهب على صورة من الصور ، وأهمها الديمقراطية والشيوعية والنازية وزميلتها الفاشية كما هو معلوم

فالكاتب الذى ينقد العيوب الاجتماعية فى النظام الديمقراطى يجب أن يشير إلى أمثالها فى النظم الأخرى ، إلا إذا كان من قصده أن يبشر بتلك النظم من طريق الإنحاء على العيوب الديمقراطية

والذين يذكرون البطالة ومتاعب الفقراء من كتابنا يجب عليهم أن يقرروا الحقيقة التى لا شك فيها إن كانوا يؤمنون بها ، وهى أن المذاهب الأخرى لم تعالج هذه المشكلة علاجا أفضل من العلاج الذى تهتدى إليه الديمقراطية ، ولا تزال تسعى إلى تحسينه ، وإلا كان إلصاق هذه المشكلة بالديمقراطية وحدها مخالفاً للحقيقة ومخالفاً للقصد السليم

أما الحقيقة التى لا شك فيها ، ولا حاجة بها إلى الإطالة فى البيان ، فهى أن النظم الاجتماعية الأخرى قد فشلت فى علاج مشكلة البطالة والفقر ، ولم توفق إلى علاج لها يضمن دوامه وتحمد عقباه

فالبلاد الألمانية مثلاً قل فيها عدد العاطلين قبل الحرب الحاضرة ، واحتاجت إلى الأيدى العاملة من بلاد أجنبية

ولكن الفضل فى ذلك لا يرجع إلى المذهب الاجتماعى الذى غلب على البلاد الألمانية وهو النازية ، وإنما يرجع إلى تسخير الأيدى كلها فى صنع السلاح والذخيرة ، وتقسيم الشبان بين جنود يعملون فى الجيش ، وعمال يصنعون لهم أدوات القتال

والنازية عدو الشيوعية كما هو معلوم ، وبين المذهبين من الخصومة مثل ما بين الأمتين الجرمانية والروسية ، ولكن الروسيين قد استطاعوا فى السنوات الأخيرة ما استطاعه الألمانيون من إقلال عدد العاطلين ، ولا فضل فى ذلك للمذهب الاجتماعى الذى يدينون به وهو الشيوعية ، وإنما الفضل فيه للتجنيد وتحويل الكثير من العامل إلى مصانع الذخيرة والسلاح

فاشتغال المصانع بالتسليح هو سبب القدرة على إقلال عدد العاطلين ، سواء كانت البلاد التى تدير مصانعها لهذا الغرض شيوعية أو نازية ، أو كائناً ما كان المذهب الاجتماعى الذى تدين به وتقيم الحكومة على أساسه

وليس بالديمقراطية من عجز عن هذه القدرة ، ولا تقصير فى هذا المضمار

بل هى أقدر من النازية والشيوعية معاً على تشغيل الملايين فى المصانع والمزارع حين تحتاج إلى المؤونة والسلاح

وعدد الصناع الذين يعملون اليوم فى البلاد الديمقراطية يربى على عمال النازيين والشيوعيين مجتمعين

والأجور التى ينتفعون بها أفضل وأقوم من الأجور التى تصل إلى أيدى الصناع فى البلاد الألمانية والروسية

فتدبير العمل من طريق التسليح فضيلة لا يختص بها مذهب من المذاهب الاجتماعية على اختلافها

وليس هو حلاً صالحاً للمشكلة الاقتصادية التى تواجه الأمم فى أيام السلم أو أيام الاشتغال بالتعمير والبناء

بل هذا الحل الوبيل هو البلاء الذى يهون إلى جانبه بلاء البطالة وإن ترك بغير علاج

إذ ليس من حلول العقلاء أن نطعم العاطلين فترة من الزمن طعاماً فيه الغنى أو ليس فيه غنى على الإطلاق ثم نسلمهم بعد ذلك إلى الذبح بالملايين من مختلف الميادين

وليس من حلول العقلاء أن تنكشف الحرب فى البلاد المهزومة عن أضعاف من كانوا بها من العاطلين وهم عاطلون وبهم من البلاء ، فوق بلاء التعطيل ، تشويه وتشريد وتنكيل

هذا دواء أهون منه الداء

هذا هو الجنون الذى يؤدى إليه سلب الحرية وتسخير الشعوب المغلولة كما تسخر الأنعام

وشفاء هذا الجنون أن تعالج الأمور على أساس التعاون بين الطبقات والتعاون بين الأمم والتعاون بين الحكومات

وهذا الذى تحاوله الديمقراطية وترجو أن تبلغ فيه بغيتها من التوفيق والنجاح

فإذا نجحت فذلك نجاح الإنسانية ، وإذا فشلت فذلك فشل الإنسانية التى لم تتمخض بعد عن مذهب أصلح من الديمقراطية لعلاج هذه المشكلات

لكن البوادر تدل على الخواتيم

والبوادر كما نشاهدها فى برنامج « بيفردج » أو ما شاكله من البرامج أدعى إلى التفاؤل من جميع هاتيك المواعيد الكاذبة التى تمنينا بها مذاهب التدمير والعداء ، سواء قام العداء بين

الطبقات أو بين الأجناس البشرية من مختار فى زعم أصحابه وغير مختار!

فالخطة الديمقراطية ترمى إلى تحصيل الضرائب الكافية من موارد الشركات والأفراد ، وإنفاق هذه الضرائب على معونة الشيخوخة ومعونة الطفولة ومعونة العاطلين كلما قضت بعطلهم ضرورات المجتمع الذى يعيشون فيه

وهذه هى الخطة المثلى التى تجمع بين المطالب المأثورة فى المذاهب الاجتماعية على تناقضها

فهى تقيم المجتمع على التعاون وتعفيه من أوضار الحقد والبغضاء بين هذه الطبقات

وهى تطلق الأيدى فى التنافس والتسابق وترفع عن الناس وصمة الحجر الذى يتركهم مسخرين مقيدين كنزلاء السجون أو نزلاء الملاجئ والمستشفيات

وهى فى الواقع ترد كل شيء إلى الأمة كأنها تقرر مبدأ المليكية العامة من طريق غير الطريق الذى يتوخاه الشيوعيون ، لأن الأغنياء أصحاب الضياع والمصانع لا يبقى لهم من ثمرات أملاكهم بعد الضرائب التى ترتقى إلى تسعة أعشار الدخل فى بعض الأحيان إلا نصيب كنصيب الموظف فى شركة أو صيعة يديرها لحساب مالكها الأصيل . ومزية هذه الطريقة على الطريقة الشيوعية أنها تبقى فى الأفراد عزيمة المنافسة والاستقلال والطموح إلى الامتياز ، وأنها مع ذلك ترد الثروة كلها إلى الأمة لتنفقها على سنة التعاون بين الطبقات

وتلك مزية الخطة الديمقراطية .

وفوق ذلك مزية الحرية وهى مناط الكرامة الإنسانية .

ومن الثرثرة الفارغة أن يصيح الصائحون كلما ذكرت لهم حرية الديمقراطية : نعم ! ولكن ماذا تغنى الحرية مع الجوع ؟ وماذا نصنع بالحرية والبطون خاوية ؟

هذه ثرثرة فارغة يلفظ بها بعضهم حسنة نياتهم ريئة مقاصدهم ، ويلفظ بها الآخرون وهم يعلمون أنهم مكابرون وأنهم يخاطبون معدات الجهلاء ولا يخاطبون رؤوس العقلاء .

فمن الذى قال مثلاً إن الحرية لا تكون بغير جوع ؟ ومن الذى قال إن الديمقراطية فرضت خواء البطون على جميع الأحرار؟

ومن الذى قال إن المذاهب الأخرى قد سلبت الحرية وحلت مشكلة الجوع ؟

فالذى رأيناه أن المذاهب الأخرى حلت مشكلة الجوع بالموت والخراب ، وأنها تخرج من الموت والخراب إلى بطالة أخرى شر على الأمم من البطالة الأولى ، ثم لا محيص لها فى نهاية المطاف من حل المشكلة على الخطة الوحيدة التى يضمن لها الدوام وتؤمن بعدها العقبى ، وهى خطة الديمقراطية كما نتمثلها الآن وكما يرجى لها من التقدم بعد التجارب المنظورة

فالذين يقولون : ماذا تغنى الحرية مع الجوع ينبغى أن يدلونا على المذهب الاجتماعى الذى سلب الحرية وأراح الناس من مشكلة الجوع ؟

أما وهم لا يستطيعون ذلك فعليهم أن يذكروا هذه الحقيقة ولا يغفلوا عن التنبيه إليها ، ما داموا لا يريدون الدعوة إلى بعض المذاهب من طريق التشهير بالعيوب وحصرها فى النظام الاجتماعى الذى يعيشون فيه

إن الحرية مع الجوع لا خير فيها

وإن الشبع مع الاستعباد وزوال الكرامة الإنسانية كذلك لا خير فيه

وإنما الفارق بين القولين أن زوال الحرية فى ظل الشيوعية والنازية محتوم ، ولكن الجوع فى ظل الديمقراطية ليس بمحتوم ولا هو من المبادىء التى تدخل فيها كما تدخل الاستهانة بحرية الفرد فى صميم المبادىء الشيوعية والنازية

وهناك فارق غير هذا الفارق بين القولين : وهو أن الشبع غاية حيوانية ، وأن كرامة الحرية غاية إنسانية ، وكفى بالديمقراطية فضلاً أنها تخاطب الإنسان ولا تخاطب الحيوان ، وأنها تعامله معاملة المكاف الرشيد ولا تعامله معاملة القاصر الذى تشرف عليه الحكومة وتخدعه عن كرامته بأحاديث الشبع والجوع ، وهى لا تكفل له الشبع ولا تريحه من الجوع ... بل تخاطب المعدات لأنها عاجزة عن خطاب العقول .

عباس محمود العقاد

حكم فى الجنحة ٢٢٣ عسكرية باب الشعرية سنة ١٩٤٣ بحبس كل من أحمد على حسانين وعامر مصطفى ثلاثة شهور مع الشغل وغرامة ١٠٠ جنيه والنشر والتعليق والغلق والمصادرة لأنهما صنعا أرغفة من الخبز تقل فى وزنها عن الوزن القانونى .

الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

إلى عمداء الكليات — عتاب لبناني — ترفق بنفسك يا صديقي — للتاريخ الأدبي

إلى عمداء الكليات

هذه كلمة أسوقها برفق إلى عمداء الكليات بجامعة القاهرة وجامعة الأسكندرية ، وأنا واثق بأن ما يَرِد فيها من المعاني قد دار بخواطر أولئك العمداء

سمعنا وقرأنا أن رجال الجامعة هنا وهناك يرون قبول الطلبة العرب بدون نظر إلى تفاوت الدرجات في شهادة الدراسة الثانوية ، وهذا واقع بالفعل ، وفيه دلالة صريحة على تشجيع التعليم العالي ، وتقوية الروابط بين مصر وشقيقاتها في الشرق

فما الذي يمنع من أن ينتفع الشبان المصريون بذلك الامتياز اللطيف ؟

أليس من العجيب أن تكون الجنسية المصرية عائقاً يمنع بعض الشبان من الانتفاع بما يتمتع به سائر زملائهم من الطلبة العرب ؟

هل يجب على الشاب المصري أن يسارع فيتجنس بالجنسية العراقية أو السورية لينجو من تلك القيود ؟

الشبان في مصر وفي سائر الأقطار العربية إخوة ، فما الموجب لتمييز فريق على فريق ؟

وكيف يجوز أن يكون من حق الشاب المصري أن يلتحق بأي جامعة أجنبية ولو كان آخر الناجحين في امتحان البكالوريا ولا يكون من حقه أن يلتحق بجامعة مصرية إلا إن كان في الرعيل الأول من الناجحين ؟

وبأي حق يكون ترتيب النجاح في امتحان البكالوريا هو الفيصل في تقدير المواهب ؟

يجب أن نعرف أن الشاب الذي يجوز امتحان البكالوريا بأي صورة معرَّض لتطورات كثيرة جداً ، لأنه لا يزال في طور التكوين ، فقد يتحول إلى جذوة من النشاط لم تمرَّ به في مراحل التعليم الابتدائي والثانوي . ويجب أن نعرف أن تمكين الشاب من التعليم العالي قد يضع أمام عقله مسئوليات تنقله من حال إلى أحوال . ويجب ثم يجب أن يتذكر رجال الجامعة أن في التعليم العالي فرصاً كثيرة لإذكاء العقول ، وهي فرص لا يجوز تضييعها على أي شاب ، ولو شهدت درجاته بأنه كان في التعليم الثانوي من المتخلفين

لا يجوز أن ننسى أن البكالوريا المصرية أصعب من مثيلاتها في جميع البلاد ، وفوز الشاب في هذه البكالوريا بأي صورة دليل على أن فيه خصائص عقلية تؤهله لاجتياز الصعب من باقي مراحل التثقيف

لم يبق إلا أن نتقي الله في أبنائنا فلا نؤاخذهم بتقصير لا ذنب لهم فيه ، ويكفيهم فوزاً أنهم زُحزحوا عن نار الرسوب

قلت مرات إنه يجب حتماً أن تكون مرحلة التعليم الثانوي هي المرحلة النهائية في إعداد الشاب للحياة ، وهي لم تصر كذلك إلى اليوم ، فلنساعد أبناءنا على ما يطمحون إليه في التعليم العالي ، ولنجُد عليهم بما نجود به على إخوتهم الوافدين من أقطار الشرق

هل تصل هذه الكلمة إلى قلوب عمداء الكليات ؟

عتاب لبناني

كان الأستاذ محمد عبد الغني حسن نشر في « الرسالة » كلمة دعا بها الأستاذ إلياس أبو شبكة إلى كتابة كلمة في التعريف بالشاعر نجيب إليان ، فردَّ الأستاذ أبو شبكة في « الجمهور » ردًّا يتلخص في أنه مع إجلاله واحترامه للأستاذ الزيات لن يكتب كلمته للرسالة ، لأنها كسائر المجلات المصرية لا تلتفت إلى الحركة الأدبية القائمة في لبنان

وأقول إن هذه النغمة — كما يسميها الكاتب نفسه — نغمة جديرة بالسماع ، وهي تتيح فرصة جديدة لتبديد شبهة قديمة تعبت أقلامنا في تبديدها عدداً من السنين ، ثم ظلت حية لا يعتريها الموت ، كأنها أفعى بسبعة رؤوس !

ثم أقول إن إغفال المجلات المصرية للحركة الأدبية في لبنان أو غير لبنان من أقطار اللغة العربية لا يرجع إلى نية صحيحة أو عليلة ، وإنما هو فرع من الإغفال العام للحركة الأدبية في الديار المصرية . فجرائد مصر ومجلاتها تسكت عما يصدر في مصر نفسها من الآثار الأدبية والعلمية ، بحيث يمكن القول بأن الحديث عن المؤلفات الجديدة لم يعد له في جرائدنا ومجلاتنا مكان

وقد صار هذا الإغفال فى حكم القواعد المرعية ، مع الأسف . ولم نجد من ينبه إلى أن له عواقب فى إخماد النشاط الأدبى فى مصر ، ولم نجد من يثور على هذا الشح فى تشجيع من يبذلون قواهم فى التأليف ، مع أن الكلام عن المؤلفات الجديدة يُعدّ باباً من توجيه الجيل الجديد إلى ما يجب أن يقرأ أو يتجنب من جديد المطبوعات

وأنا نفسى راعيت هذا الإغفال ، فقررت أن أغفل إهداء مؤلفاتى إلى الجرائد والمجلات ، لأنى أكره إحراج زملاء ليس فى نيتهم أن يلتفتوا إلى التأليف والمؤلفين ، واكتفيت بالإعلان عن مؤلفاتى بالفلوس ، إن احتاجت إلى إعلان

نقد الكتب قد انقرض فى مصر . النقد الذى يبرز محاسنها قبل أن يبرز مساويها ، النقد الذى يراعَى فيه خلق صديق المؤلف ، أما النقد الآثم فهو بحمد الله موجود !

وكان من عادتى فيما سلف أن ألتفت إلى المؤلفات الجديدة ، فكنت أخصها بصفحات فى جريدة البلاغ ، ولكنى لم أجز على تلك الجهود بغير الجحود ، فإن أثنيت على المؤلف قيل تقريظ ، وإن حاسبته قيل عدوان ، وكانت النتيجة أن أعفى نفسى من عناء ليس له فى مصر جزاء

وما جرى لى جرى مثله لكثير من النقاد ، فانصرفوا عن نقد الكتب إلى غير مَعاد . وستظل الحال كذلك إلى أن نجد من الشجاعة ما ندوس به جميع الأهواء فنقول كلمة الحق فى المؤلفات الجديرة بأن توضع فى الميزان ، غير مبالين بالقراء والمؤلفين

فى هذه اللحظة تذكرت أنى لا أقول كلاماً جديداً ، فقد نشرت لى مجلة المكشوف فى العدد الخاص بمصر مقالاً عما صار إليه النقد الأدبى فى بلادنا ، فاعذرونا إذا فرطنا فى حقوقكم الأدبية ، فقد فرطنا فى حقوقنا الأدبية ، وما ظلمك من ساواك بنفسه فى الإجحاف !

وأنا بعد هذا أرجو أن يكون فى هذه الكلمة مقنع لمن يتهمنا ظلماً بالتغاضى عن الحركات الأدبية فى سائر البلاد العربية

ترفق بنفسك يا صديقى

رأى قراء الرسالة أن السيد حسن القاياتى عادانى من غير موجب للعداء ، وساق إلىّ ألفاظاً لا تصدر عن صديق ، مع أنى لم أسىء إليه فى سر ولا علانية . وكانت حجته أن ناساً حدثوه أنى قلت فيه كيت وكيت ، وهو يعرف أنى أبالغ فى إكرام أصدقائى ، وأنى لا أتعرض لأعدائى بكلمة مؤذية ، إلا إن حاربتهم فى الجهر لا فى الخفاء

والآن ، ما ذا يريد السيد حسن القاياتى ؟

أيريد أن أجزيه إثماً بإثم ، وعدواناً بعدوان ؟

أنا حاضر وفى يدى قلمى ، ولكنى لا أشترك فى حرب يكون فيها الغالب أسوأ حالاً من المغلوب ، فترفق بنفسك يا صديق ، واذكر عهوداً يذكرها كرام الرجال

تقول إنك كنت شاعراً كبيراً يوم كنت أنا طفلاً يلعب ، فما قيمة هذه الحجة يا عضو المجمع اللغوى ، كما ذيلت اسمك ؟

هل كان يجب أن أسبقك إلى الدنيا لأسبقك إلى الأدب ؟

وما ذا أفدت أنت من سبقك اللطيف بحكم شهادة الميلاد ؟

وما ذا أفادت جهودك الشعرية فى نصف قرن ، وأنت الذى صرحت بأن باكورتك ظهرت قبل نصف قرن ، يا عجوزاً سبقنى إلى الوجود ؟

اترك هذه الحجة الواهية ، إن كنت تريد الحِجَاج

ثم ما ذا ؟ ثم طاب لك أن تتحدانى وتتحدى الأستاذ العقاد بكلمتين جارحتين ، وهذا ظلم منك ، فالعقاد يملك فى محاسبتك ما لا أملك ، لأنه ليس لك بصديق ، فهو لا يبالى تجريحك ، ولا يؤذيه أن تبيت معصوب الجبين

أما أنا فأتردد ألف مرة قبل أن أصوّب رمحى إلى صدرك ، وقد يرضينى أن أسكت عنك ، لأنجو من محاسبة الضمير على إيذاء الصديق

أتقول إنك أعظم منى ؟ هو ذلك يا أخى !

أيؤذيك أن أكون أشهر منك ؟ إن كان ذلك فأنا أخلع الشهرة عليك ! خذ هذه الشهرة ، خذها ، فقد آذتنى أعنف الإيذاء .

وما رأيك فى الصديق الذى يجازف بصداقة دامت عشرين سنة أو تزيد ؟

ما رأيك فيمن يشتم أخاه فى مجلة مثل الرسالة وهو يعلم قيمة صوتها فى الشرق ؟

لقد ظهر السر فى إخفاقك ، وهو أنك رجل بلا قلب

إن كان لك بعد اليوم حياة أدبية فهى من صنع يدى ، فأنا الذى أغضبتك على كسلك ، وأنا الذى رفعت النقاب عن قلبك المَقفوق ، ولن أتركك أو تصير أديباً يعتز بحاضره لا بماضيه ، فما يعتز بالماضى غير الفانين

هل تذكر هذا الجميل ؟ لقد سوّيت من قبلك ناساً فجحدوا جميلي وادعوا أنهم نظرائي ، فكن أنت خاتم الأوفياء ياعقوق .

التاريخ الأدبي (1)

في سنة ١٩١٧ رفضت وزارة الحقانية أن يستمر الشيخ محمد الخضري بك والشيخ محمد المهدي بك في التدريس بالجامعة المصرية ، وكانا أستاذين بمدرسة القضاء الشرعي ، وهي يومئذ تحت إشراف وزارة الحقانية ، فبحثت الجامعة عن أستاذ للتاريخ الإسلامي لا تسيطر عليه الحكومة ، فظفرت بالأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار ، وكان قريباً للشيخ الخضري ، فقد كانا في الأدب والتاريخ فرسَيْ رهان

ولكن أين من يخلف الشيخ المهدي ؟

ذلك سؤال وجهه الأستاذ محمد بك وجيه سكرتير الجامعة في ذلك العهد إلى الشيخ عبد الرحمن المحلاوي أستاذ الشريعة الإسلامية بقسم الحقوق ، فدله على الشيخ مصطفى القاياتي ، أحد أساتذة الأدب بالأزهر الشريف

وفي عصر يوم سمعت صوتاً يناديني وأنا في طريقي إلى الجامعة فالتفت فرأيت الشيخ مصطفى القاياتي ، وانتحينا ناحية في قهوة بميدان الأزهار ليدور هذا الحديث :

— هل تهمك سمعة الأزهر ؟

— تهمني جداً

— وتهمك سمعة الجامعة ؟

— بلا ريب

— إذن يمكن أن أعتمد عليك إذا قبلتُ اقتراح الجامعة ؟ تقترح أن أكون خلفاً للشيخ المهدي في تدريس الأدب العربي ، وقد فكرت كثيراً فيمن أعتمد عليه في معاونتي فلم أجد غيرك

— هل أعطاك سكرتير الجامعة منهاج المحاضرات لهذه السنة الدراسية ؟

— هذا هو

نظرت في المنهاج — وكان من وضع الشيخ المهدي — فوجدتني أقدر على إنجازه بلا عناء ، فأشرت على الشيخ مصطفى بالقبول ، فمضى وأمضى العقد في الحال

(١) الغرض من هذه الكلمة تسجيل تاريخ صحيح أراد بعض الناس أن ينالوا منه بالتحريف

شذوذ غريب !

كان الشيخ مصطفى القاياتي من أخطب الخطباء في عصره ، كان يخطب ساعة أو ساعتين بلا تلعثم ولا توقف ولا تحبيس ، وكان لا يلحن أبداً وهو يخطب ، ومع هذا كانت الكتابة عسيرة عليه عسراً لا يطاق ، فما كان يسهل عليه إنشاء مقال ، ولا كان في مقدوره تحرير خطاب

والذي سمع الشيخ مصطفى خطيباً لا يصدق هذا القول ، فقد كان خطيباً مُحَاجاً ، خطيباً عرفته منابر الحزب الوطني قبل أن تعرفه منابر الوفد المصري ، فكيف يصعب عليه الإنشاء وكان في الأزهر معلم إنشاء ؟

يرجع إلى أنه نشأ واعظاً وكان أهله من الواعظين ، فقويت عنده ملكة الخطيب الفصيح ، وضعفت عنده ملكة الكاتب البليغ

هل أنسى يوم أنابه الوفد المصري في تأبين الشهيد محمد فريد ؟ لقد ألقى خطبة جميلة جداً ، ألقاها مرتجلاً وهو يجهل أن جريدة اللواء المصري ستطالبه بالنص ، لأن خطبته هي كلمة مندوب الوفد المصري في تأبين الرئيس الثاني للحزب الوطني

عند ذلك دعاني لقضاء لحظة في تحرير الخطبة ، فأنشأتها في حدود ما قال ، إلا عبارات تأباها السياسة الحزبية ، ولكن مكر جريدة اللواء كان أعظم فأضافت إلى الخطبة كلمات قالها الخطيب ولم يسجلها نائب الخطيب !

وتمثل هذا الشذوذ في معرفة الشيخ القاياتي بتاريخ الأدب العربي ، فقد كان برغم فصاحته الخطابية لا يفرق بين عصر وعصر ، ولا يعرف الحدود بين مراحل التاريخ

كان الشيخ مصطفى ذكياً جداً ، ولكنه كان قليل الاطلاع ، فكان من الصعب أو من المستحيل أن يخلف الشيخ المهدي في تدريس الأدب العربي

أستاذ بالروح

لم يكد الشيخ مصطفى يطمئن إلى معاونتي حتى شعرت بأن واجبي أن أحفظ سمعة الأزهر والجامعة المصرية ، فشرّقت في تاريخ الأدب وغرّبت ، وأعددت أربعين محاضرة لو نشرت اليوم لكانت غاية في دقة البحث ونضارة البيان ، وهي لا تزال

في حيازة الأستاذ يوسف القاياتي ، فتى ينفض عنها غبار النسيان ؟

والمهم أن أسجل أن حرصي على الصدق في أن تضان سمعة الشيخ مصطفى من لغو اللاغين فرضت على أن أجمل محاضراته في قوة محاضرات الشيخ المهدى

وقد نجحت ونجحت ، وكانت جهودي في تلك السنة ذخيرة باقية لحياتي الأدبيـة ، فقد استقصيت فيها مراحل الأدب في القديم والحديث

وبفضل الشيخ مصطفى القاياتي كان لي تلاميذ بالجامعة المصرية سنة ١٩١٨ منهم الأستاذ حسن ابراهيم وأحمد البيلي وعبد الحميد العبادي وابراهيم الجزيري

ثم ماذا ؟ ثم كان زكي مبارك من تلاميذي ، لأنه أدّى امتحاناً أمام الشيخ مصطفى القاياتي في الدروس التي أعددتهـا بنفسي ، فإن أنكر زكي مبارك أنه تلميذي فسأفحمه بشهادة السيد حسن القاياتي ، وهو رجل شهد ذلك التاريخ المجيد .

زكي مبارك

٣ ـ نشأة الدرامة الانجليزية

للأستاذ دريني خشبة

لم يفكر جون هيوود عندما ابتكر الفواصل المضحكة التي أشرنا إليها في الفصل السابق ، في أن تكون فواصله جزءاً من صلب الدرامة الأخلاقية ، إنما قصد أن تكون شيئاً مستقلاً كل ما يرمي إليه هو التضحيك والترفيه عن الناس بهذا السيل المتتابع من النكات الشائقة وطرافة الموضوع ولذع سخريته ، ولهذا كان تمثيل فواصله قاصراً على الحفلات التكريمية أو أوقات الاستراحة في الحفلات العامة أو المآدب الكبيرة . وكان أول ظهور فواصله التمثيلية هذه ، التي مهدت للملهاة الإنجليزية الكاملة ، في العام الثاني عشر من حكم الملك هنري الثامن — ١٥٢١ — ومن أطرف تلك الفواصل فاصله المسمى « الباءات الأربع » أو The Four pp. ، والذي نستطيع أن نسميه باسم « المغفلين الأربعة » ، وهم : المحتال Palmer ، والسامح Pardoner والعطار[1] Potecary ، والبائع المتجول Pedlar . وخلاصة هذا الفاصل أن خلافاً يشجر بين المحتال والسامح ، إذ يدعي المحتال أنه طاف بأرجاء العالم وجال في جميع أصقاعه ، كما حج إلى بيت الله (في فلسطين طبعاً) عشرات المرات ، ولذلك فهو يريد صاحبه على أن يقر له بسمة الاطلاع والتبحر في المشاهدة ، وأنه بذلك قد هذب نفسه ورقق طبعه لكثرة ما خبر من أحوال العالم ، وما تمرس به من تجارب الحياة . بيد أن صاحبه يسخر منه ويغلو في الاستهزاء به ، ويقول له إن من كان شأنه ما ذكر ، كان ينبغي أن يعود أكثر اتزاناً ، وأرجح عقلاً ، وأوفر أدباً ، وأقوى ضبطاً لنفسه ، وأشد سيطرة على أعصابه . . . ويشتد الخلاف بينهما ويستفحل ، حتى يوشكا أن يلتحما لولا أن يقبل عليهما العطار — المغفل الثالث — ، فيرسل هو الآخر تهريجاته المضحكة ، ويبصرهما عما كانا فيه من نخار وتعاظل ليُزهى هو بنفسه ، وليطلعهما على ما وهبه الله من مقدرة وافتنان في تركيب عقاقيره — ولا سيما السموم المهلكة التي تكثر من زبائن جهنم ، وأنه أحسن مورّد للمدائن والقرى على السواء . ثم يقبل البائع المتجول — وهو المغفل الرابع — فيهرع إليه الثلاثة ليحسم النزاع المشتجر بينهم . . . لكنه يشيح عنهم ويشتغل بعرض سلعه وترتيبها ، ثم يمضي وقت طويل ولا يمن الله على البائع المتململ بزبون واحد يجبر خاطره بشراء شيء من معروضاته الكثيرة فيشترك مع الثلاثة الآخرين في هرائهم مضطراً ، لكنه يرفض أول الأمر أن يقضي بينهم . . . لأن الله لم يكتب له هذا القدر العظيم من الذكاء وعبقرى الفِطَن حتى يستطيع أن يفهم هذه المشكلات العويصة التي يختلفون عليها . . . يقول هذا بعد إذ يلاحظ أن ثلاثتهم مغفلون أغبياء ؛ بيد أنه يتغابى هو الآخر ، ويستدرجهم لكي يقص عليه كل منهم أكبر كذبة من أكاذيبه . . . وهنا تنشب ملحمة مضحكة من أروع الأكاذيب التي لا يتسع المقام هنا لاستيعابها جميعاً . وما يزال هذا شأنهم حتى يدّعي المحتال (النخّاع) أنه طاف بأطراف الدنيا ، وعاشر اللايين من الناس في كل حدب وفي كل صوب ، وأنه بلا من أمور النساء ما لم يتفق لأحد من قبل ولن يتفق

(١) واسمه بالانجليزية الحديثة Apothecary

لأحد من بعد ، وأنه كثير الأصحاب جم الأصدقاء ، وأن فى صويحباته نصف مليون امرأة ! نصف مليون فقط ! — ليس فيهن من تدللت عليه يوماً ولا بدت منها أمارة من أمائر الغضب لأى سبب من الأسباب — ولما كانت هذه من غير شك أغلظ الأكاذيب وأخشنها فقد قضى البائع بالغلبة لهذا المحتال (النخاع !) — والدرامة من أولها إلى آخرها تفيض (بالفَشْر !) — وليغفر لنا القراء هذا التبذل فى التعبير فنحن نكتب عن الملهاة الإنجليزية التى يعتبر (الفشر) أقوى أركانها . ثم هى مليئة بالنكات من النوع الهادئ الذى يفيض عن الطبع الإنجليزى البارد . وقد كتب هيوود[1] قبل هذه الدرامة ـ أو الفاصل ـ فاصلين آخرين أقل منها مرتبة ، وقد أدى للمسرح الإنجليزى أجل خدمة بفصله بين الأخلاقيات والفواصل أولاً ، ثم بخروجه على تقليد الشخصيات المجازية ثانياً ، واتخاذه أشخاص فواصله من الحياة مباشرة . ومما يؤسف له أن أحداً من الأدباء الإنجليز لم يقتف أثر هيوود فى هذا المضمار . على أن أديباً آخر هو « نيقولا أودول N. Udall » ناظر مدرسة أيتون (١٥٠٥ — ١٥٥٦) — وكان من عادته تقديم درامة من الدرامات الكلاسيكية الرومانية فى كل من حفلاته السنوية المدرسية ، قد فاجأ المدعوين بملهاة من تأليفه سماها (رالف روبستر دويستر — كانت أول ملهاة منتظمة من فصول متفرقة شهدها المسرح الإنجليزى — والملهاة بعد ذلك لم تكن شيئاً مذكوراً ولم يكن لها قيمة من حيث الحبكة أو الموضوع أو اللغة إن لم تكن شيئاً غثاً تتقزز النفس منه وتنفى له . وقد نظمها من خمسة فصول وقسمها إلى مناظر وقصد بها إلى تصوير حياة الطبقة المتوسطة من سكان لندن فى القرن السادس عشر . وأبطالها الثلاثة : أرمل تدعى كونستانس ، ثم عاشقان يحاول كل منهما أن يفوز بها . أما أولهما وهو بطل الرواية فهو رالف روبستر دويستر ومعناه الولد الجعجاع الكثير التفاخر ؛ وأما ثانيهما فيدعى جاوِنْ جُوْدْلَكْ . والبطل هو أحد أولئك الأغرار المغفلين ، أما خصمه فهو الحبيب المدلل المقرب . وتبلغ الملهاة ذروتها ، حينما تجتمع الأرمل وصويحباتها ليقذفن إلى الشارع بالبطل المخبول وبأتباعه العرابيد ، ثم تنتهى بصلح عام !

هذا وقد ألف جون ستِل Still (١٥٤٣ — ١٦٠٨) ملهاته (إبرة الجدة جرتون Gammer Gurton's Needle) على طراز ملهاة أودول ، إلا أنه أشر بها كثيراً من روح الفكاهة الشعبية (البلدى !) ، وأرسلها فى لهجة عامية شديدة الغموض ، حتى على الإنجليز المحدثين أنفسهم . وتتلخص الملهاة فى أن الجدة جرتون كانت جالسة ترفو ثياب خادمها هودج ، ثم ذهبت لقضاء أمر ما داخل بيتها ؛ فلما عادت والتمست الإبرة لم تجدها ، فأخذت تسب الدنيا وتلعن الحياة وتسأل أهل الحارة عن إبرتها العزيزة المفقودة ، ثم تلتقى بشحاذ أبله يدعى دِكُّون فيخبرها أن فلانة من أهل القرية قد سرقتها ، فتصيح بها الجدة جرتون ، وتقبل المتهمة وتدفع التهمة عن نفسها ، لكن جرتون تشتط فى صياحها فتصيح المرأة الأخرى وتجتمع نسوة القرية جميعاً ليشاركن فى هذه اللحمة المضحكة ، ويتراشقن (بأشلق !) العبارات ، ثم تهدأ العاصفة حينما يمر الخادم هودج بالإبرة مثبتة فى مكانها من الرقعة التى كانت الجدة جرتون ترفوها

وقد امتدح الناقد الكبير هازلت روح الفكاهة فى هذه الملهاة وإن لم يمتدح لغتها ... « لأنها غذاء شعبى شهى ليس غريباً على الجمهور الإنجليزى ، وفكاهة بريئة تصويرية لأمزجة متشاكلة ... قد نظنها لأول وهلة شيئاً لا قيمة له ، شيئاً تافهاً غير جدير بالاعتبار ، لأنه ليس كما عندنا ... ونحن إذا انتقدناها انتقاداً سطحياً هكذا ، كنا متجنين على هذا التراث الأدبى البدائى ، وكنا كمن يرفض قراءة كتاب قديم قيم لأن به بعض الأخطاء الإملائية !! »

ومما تمتاز به هذه الملهاة اشتمالها على إحدى الأغانى الإنجليزية التى يهيم بها الإنجليز إلى اليوم . ويرجح العارفون أن هذه الأغنية ليست من نظم ستل ، بل إنه قد أخذها عن شاعر آخر لا يعرف اسمه . ومما امتاز به أيضاً هذه الأسماء الفكاهية التى يلجأ إليها المؤلفون الكوميديون اليوم لتزيد فى كثرة (النكت) ولتزيد بالتالى فى كثرة ضحك المتفرجين — فالبطلة جامر جرتون أى الجدة جرتون ، وقد يلحظ القارىء العربى النكتة فى كلمة

(١) كان هيوود كاثوليكيا صالحاً من أتباع الكنيسة الرومانية ، وقد عرضه مذهبه هذا لألوان جمة من الاضطهاد فى عصرى إدورد السادس والملكة إليزابث مع أنه كان من المحببين جداً إلى بلاط الملك هنرى الثامن وقد ألف بالفعل لتسلية هذا البلاط ملهاته الثانية وهى (اللعبة المرحة The Merry Play بين الزوج والزوجة والقسيس)

جامر التي هي نوع ترخيم جدة Grand mother كما يرخمون جد Grand father فيقولون جافر Gaffer ، وهنا موضع تفكهة للانجليز . وخادمتها تب Tib أي عاهرة، وخادمها كوك أي ديك ، وجارتها كات أي قطة ، وخادمة هذه الجدة دُل أي عروسة أو لعبة ، والدكتور رات أي فأر الخ . . .

المشاهد الموسيقية Masques :

أشرنا في فصل سابق إشارة خفيفة إلى الدرامة التنكرية Disguising التي هي مشاهد تنكرية أيضاً ، ولكن من نوع مرح يُؤدَّى في جو مشرق مُرِن ممتلىء بالبهجة والأبهة في بيوت العظماء والنبلاء والممتازين — وقد انتقلت هذه المشاهد الموسيقية ، أو المشاهد التاريخية — إلى انجلترا في إبان عصر الملك هنرى الثامن من إيطاليا ، وتؤدى فيها مشاهد درامية تاريخية راقصة أبطالها اللوردات وأزواجهم في شكل موكب موسيقي حافل أساسه الإنشاد والملبس الزخرفي البهيج خلال رقص توقيعي أو رقص مشترك . . . ومؤلف هذا اللون من المشاهد الذي احتفناه بفصل الملهاة هو المهندس قبل الشاعر أو الأديب ، وذلك لأنها درامة مشهدية (استعراضية) قبل أن تكون درامة شعرية أو درامة منثورة . فالمهندس أو المخرج ، هو عماد النجاح في هذه الدرامة التصويرية التي ترتكز على الجمال المنظور ، وروعة توزيع الأضواء ، والدقة في إبراز المشهد وسمو الذوق في اختيار الملابس ، والتنظيم الآلي لصالة العرض قبل أن ترتكز على الموضوع أو الأناشيد ، أو ما إلى ذلك من ألوان الأدب . . . إذ كل ذلك شيء ثانوي بالقياس إلى المؤثرات المحسة في المشهد الموسيقي . وقد ألف الأديب المسرحي الكبير والشاعر الفحل بن جونسون كثيراً من المشاهد الموسيقية التي ترك للمهندس المسرحي الخالد إنيجو جونس Inigo Jones إخراجها الفني والآلي فبرع في ذلك وأبدع أيما إبداع . . . وقد ألف فيها كذلك الشاعران الكبيران بومونت وفلتشر أكثر مما ألف جونسون ، وذلك باشتراكهما معاً في التأليف على نحو ما يصنع بعض أبطالنا الكوميديين اليوم . وقد استقل فلتشر بالناحية الدرامية ، كما اختص بومونت بالأغاني والنظم . . . أما جونسون فقد كتب أربعين مشهداً ، ثم جاء شاعر انجلترا الكبير جون ملتون فكتب بعض المشاهد بأسلوبه المتفرد العالي ، ثم هذب بعض مشاهد جونسون لتسلك من قلمه الرفيع الجبار في سجل الخلود

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن هذه المشاهد الموسيقية — أو الاستعراضية — كانت فاتحة عظيمة للأوبرا والأوبريت (١) في العصر الحديث ، وأن البلاط الإنجليزي في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان معرضاً حافلاً لهذه المشاهد الاستعراضية الراقصة ، وأن القناطير المقنطرة من الجنيهات الإنجليزية كانت تنفق بلا حساب على الموسيقيين المحترفين والمغنين ومهندسي المناظر والأضواء كي يبلغ إخراجها حد البهاء والكمال ، وهذا هو الذي جعل الملكة إليزابث نفسها تُشفق من هذا اللون من ألوان التسلية الملكية في بلاطها لخطورة أداءه فيه (حتى لا تتعرض خزانة الدولة لتلك البالوعة من بالوعات الإسراف ، وهذا العبء الفادح من أعباء البذخ)

وقد كان عرض المشهد يبتدئ بحوار غنائي أو كلامي تتلوه استعراضات راقصة فردية من الممثلين المحترفين ، ثم يختار هؤلاء (زملاء الرقص) من بين النظارة ، فيصير الرقص زوجياً ، ثم يختلط الحابل بالنابل ويسود الهرج والمرج ... وهنا موضع النشوة المنشودة من (المَسْك) وهي تتم على أنغام الموسيقا وترجيع المغنين وتسجيع المنشدين ... وكان على الشاعر أن يسبق المشهد أو يفتتحه بكلمة يلخص فيها الموضوع ويصف المناظر من حيث ما ترمز إليه من بيئة ووسط وجو ، ثم يثني أطيب الثناء وأعطره على السادة الأشراف الذين تنازلوا فقبلوا الاشتراك في التمثيل ، وهم من هم من أمراء البلاد وأعيانها وساداتها ، والذين تفضلوا منهم بالمساهمة في نفقات الإخراج (وما أفدحها وأثقل أوزانها !) ثم يفرغ بعد ذلك إلى الثناء على معاونيه ومساعديه Collaborators من مصورين وموسيقيين ومهندسي إضاءة ومغنين وراقصين... ثم يتقدم فيوزع كراسة(بروجراما) تحوى كل المعلومات عن منهاج الحفلة المفصل ، وكان الحاضرون يحتفظون بها تذكاراً نخريباً يعرضونه في صالوناتهم ، آية من آيات بهاء البلاط الملكي الإنجليزي ولألائه !

(يتبع) دريني خشبة

(١) الفرق بينهما أن الحوار في الأولى يكون نظماً كله أما في الثانية فيجمع بين النظم والنثر وبين الغناء والكلام المرسل ، وسنعود إلى الكلام عن شعراء المشاهد في فصل مستقل إن شاء الله .

المشكلات

٦ – اللغـــة العربية

للأستاذ محمد عرفه

لماذا أخفقنا فى تعليمها ؟ — كيف نعلمها ؟

لقد هال بعض علماء العربية ما يرونه من تعلم ولدان الأعراب لغتهم بالطريقة الطبيعية إذ يخرجون يتكلمون بها لا يخطئون ويعربون فلا يلحنون ، ووازنوا بين هؤلاء الولدان وبين تلاميذهم الذين يعلمونهم على طريقة القواعد والقوانين ، فرأوا البون شاسعاً ، والفرق واضحاً : هذا يصيب ولا يخطيء ، وهذا يخطيء ولا يكاد يصيب ، إذا أخذ الأول بالخطأ لم يطاوعه لسانه ، وتعذر عليه الخطأ كما يتعذر على الآخر الصواب . رأوا هذه المشاهدة ، ووازنوا هذه الموازنة ، فذهبوا إلى أن اللغة العربية للعرب ولأبنائهم بالطبيعة والفطرة ، ولغيرهم بالتعليم ، وشتان بين ما هو بالطبيعة وما هو بالتعلم والتكلف ؛ ولن يبلغ المتكلف وإن بلغ الغاية شأو الطبعى الفطرى

وهـذا المذهب غير صحيح وإن كان أصحابه معذورين فى الذهاب إليه

أما العذر فلأنهم يفنون أعمارهم فى درس اللغة العربية وقوانينها وعللها وأسبابها ، يبذلون طاقتهم ثم لا يجدونهم قد بلغوا ما يبلغه ذلك الغلام الذى ينشأ فى البادية من إجادة اللغة وامتلاك ناصية الشعر والنثر

وأما أن هذا المذهب خطأ فيدل عليه أنه لو كانت اللغة العربية طبيعية فى العرب لما تخلفت ، لأن ما بالطبيعة والذات لا يتخلف . ونحن نحكم بالتخلف ، فلو أخذت صبياناً من أبناء العرب وربيتهم فى فارس أو الروم لخرجوا يتكلمون الفارسية أو الرومية ، ولم يحسنوا شيئاً من العربية ؛ وإذن فليست اللغة العربية فى العرب وأبنائهم طبيعة وليست فيهم لذاتهم ، ولو أخذت صبياناً من أبناء فارس وربيتهم فى بادية العرب لخرجوا يتكلمون العربية ولم يعرفوا شيئاً من لغة فارس والروم . فالصحيح من القول إذن أن اللغة العربية فى العرب وغيرهم بالتعلم والاكتساب ؛ إلا أن الطريقين مختلفان ، فالعرب يتعلمونها بالحفظ والاختلاط وتربية الملكة ، والنحاة يتعلمونها بالقواعد والقوانين ، ويهملون تربية الملكة ، فتكون الطريقة الأولى أجدى وأنفع ، وتكون الطريقة الثانية أخيب وأقل جدوى

ونحن ليس فى استطاعتنا أن نكون البيئة العربية فنأتى بالطريقة الفطرية ، ولكن فى استطاعتنا أن نقارب ، وأن نقلد الطريقة الفطرية فنحسن التقليد ، ونكثر من الحفظ ، ونعمل على تكوين ملكة اللغة بالعادة والدربة والتكرار

أيجمل برجال التعليم أن يخطئوا فى تعليم الولدان اللغة العربية فيعلموا بالقواعد ما لا يعلم إلا بالتكرار والحفظ ثم يطالبوهم بكتابة مواضيع تكون جارية على أساليب اللغة ، خالية من اللحن والغلط ، فإن لم يستجيبوا لهم لاموهم ونسبوا إليهم العجز والتقصير ؟

كيف يكتبون كتابة جارية على أساليب العربية ولم تتكون فى أذهانهم مقاييس ونماذج عربية يكتبون على مثالها ؟ وكيف يتكلمون كلاماً جارياً على أساليب اللغة ولم تتكون فى أذهانهم صور ذهنية تدعوهم للتكلم على منهاجها ؟ وكيف نطالبهم بالسرعة والجودة فى الكلام وتوفير الزمن والجهد وهم لم يكتسبوا ملكة اللغة التى بها يكون ذلك ؟

الحق أنكم تستنبطون الماء من الحجر ، وتطلبون فى الماء جذوة نار . الحق أنكم تأتون الأمر من غير بابه ، وتلجمون الفرس من الخلف . الحق أنكم إذ تلومون التلاميذ على خيبتهم فى اللغة تلومون غير ملومين ، وتأخذونهم بذنب أنتم علله ، وبجريرة أنتم أسبابها . ولو أنصفتم للمتم الطريقة التى علمتموهم عليها ، أو بالحرى لرجعتم باللوم على أنفسكم

يا قوم قد جربتم طريقة القواعد فى تعلم اللغة العربية ألف مرة ، وفى كل مرة تخفقون ، وجربتها الأجيال قبلكم كذلك ، فجربوا مرة واحدة طريق الحفظ والتكرار ، وأنا كفيل لكم أن تحمدوا هذه التجربة ، وألا تعدلوا بها غيرها ، ولو بذل لكم ما يستطاع للعدول عنها إلى طريقتكم الأولى لم تفعلوا ، لأنكم قد وجدتم فى هذه الطريقة النجاح حين وجدتم فى الأولى الإخفاق

* * *

ونحن نعلم فى مدارسنا المصرية اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية ، كما تعلمها مدارس الجاليات الأجنبية ، ولكن الشركات والبنوك والمحلات التجارية التى تصطنع هاتين اللغتين فى الكتابة والخطابة تفضل أن تستخدم من تخرج فى المدارس

الأجنبية على أن تستخدم من تخرج فى المدارس المصرية ، لأن الأول يجيد اللغتين كتابة وحديثاً ، والثانى أبانت التجربة أنه لا يجيدهما كأخيه . أتدرون لم ذلك ؟ إن شؤم طريقة تعليم اللغة بالقواعد قد تعدى إلى هاتين اللغتين ، فمدارسنا المصرية تعلمهما على طريقة حفظ القواعد ، أما المدارس الأجنبية فتعلمهما على الطريق الطبعى طريق الحفظ والتكرار والمحادثة حتى تثبتهما ملكتين راسختين فى النفس فيجيد تلاميذها الكتابة والحديث بهما ، ومن أين لتلاميذ المدارس المصرية أن يجيدوهما وهم إنما عرفوا القواعد ولم يجعلوهما ملكتين بالحديث والتكرار؟

ومن ذلك نعلم أن هذا الإخفاق لا يرجع إلى قصور فى عقول التلاميذ المصريين ولا إلى كسل يستولى عليهم ، وإنما يرجع إلى هذا الأسلوب العقيم . وهذا هو السر أيضاً فى كثرة التلاميذ الذين يرسبون فى هاتين اللغتين ، فنحن الذين يجنون عليهم ، ثم نحملهم جريرة عملنا ، ونأخذهم بذنوبنا

سمعت أحد أبنائى يردد صيغاً من اللغة الإنكليزية ويقول هذا للمذكر وهذا للمؤنث وهذا للجمع

فقلت له : ما ذا تفعل ؟ قال : أحفظ درس القواعد . قلت له : ما هكذا يكون ، ينبغى أن تأتى بجمل تامة من اللغة الإنجليزية فى مخاطبة المذكر ومخاطبة المؤنث والجمع ، وتفهم معناها وتكررها وتحفظها ، وتتحدث بها حتى تكون ملكة ، ثم تأخذ القاعدة منها إن شئت . هذا هو الأسلوب الفطرى فى تعلم اللغة ؛ أما أن تأخذ اللغة من القاعدة فهذا ليس طريقاً طبعياً . لقد كان يعجزنا ونحن تلاميذ أن نحفظ قواعد اللغة العربية ، فكنا نستعين عليها باستنتاجها مما نحفظ ومما رسخ فى أذهاننا ، وصار ملكة فينا . مثلاً : إذا كنا لا ندرى ما عمل كان وأخواتها ، وما عمل إن وأخواتها ، رجعنا إلى ما رسخ فى نفوسنا ، واستشرنا ملكاتنا ونطقنا بأمثلة نحفظها ، فيها كان وإن ، ونرى كيف تنطق بها ألسنتنا ، كقوله تعالى : « كان الله غفوراً رحيما » ، « وإن الله على كل شىء قدير » . ونستنبط من ذلك أن كان ترفع الاسم وتنصب الخبر ، وأن إن تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهذا تقريب لما أريد أن يكون فى تعليم اللغات . أريد أن تثبت الأساليب والألفاظ بالحفظ والتكرار حتى تكون ملكة ، ثم تستنتج منها القواعد ، ولا أريد أن تحفظ القواعد لتعلم منها الأمثلة ، فإن ذلك لا يجعلها ملكة إلا أن يلجأ إلى الحفظ والتكرار

ومن العجب أن تمكث هـذه المدارس بين ظهرانينا هذا الدهر الطويل ونرى أسلوبها الناجح فى تعليم اللغات ، ونلمس نجاحه ولا نقتبس منها هذا الأسلوب !

أيرى قوم طائفة تعمل عملاً فتنجح ، ويعملون هم هذا العمل فيخيبون ، ولا تدعوهم أنفسهم لترك أسلوبهم واقتباس أسلوب الناجحين ؟ وأعجب من هذا أن ترى هذه المدارس أسلوبنا الخائب ، وتلمس خيبته فلا تنصحنا ولا ترشدنا إلى الطريق القويم فى تعليم اللغات

أيستطيع أحد أن يرى ضالاً يمشى على غير الجادة تنكبه الأحجار وترديه الحفر ، ولا يقيمه على الجادة ؟

لست أدرى أأرجع باللائمة علينا لعدم استفادتنا منهم ، أم أرجع باللائمة عليهم لعدم إرشادنا ؟ ولكن يظهر أن بين الجماعات منافسة كما بين الأفراد ؛ فلا ترى جماعة جماعة ضالة وتهديها السبيل . فإن كان ذلك كذلك فقد أغناكم الله عن أجنبى يضن عليكم بالنصيحة . وها لكم النصيحة من رجل من أنفسكم محب لكم يود خيركم ، ويحرص على نفعكم ، ويعز عليه أن تضيع جهودكم ، وأن تبدد أعماركم . وهو ناصح أمين ؛ فهل أنتم منتصحون ؟

محمد عرفه

عمـــــر بن الفارض

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

صفحة ناصعة من تاريخ الأدب العربي . صفحة ذات معان ومزايا متنوعة يقف السامع بإزائها حائراً مبهوتاً كأنه يتسمع إلى ألحان من الموسيقى الإلهية ، بل نغم ينبعث من أجواء علوية ، كأنه الإلهام الذي يستولي على الدماغ ويمتزج بالفكر فيكون سحراً . تلك هي حال القليلين الذين يضن الدهر والتاريخ علينا بهم لأنهم مثلوا عصوره . بهم تفيض علينا معاني النبوغ والعبقرية تلك المعجزة الإلهية ؛ وهذا شأن العظمة التي يخلقها العظيم فيعظم عصره ؛ وهكذا تنطوي عندئذ صفحة من صفحات التاريخ وسفر جليل من السفارة يكون رمزاً للحياة الماضية والحاضرة . وهذا ابن الفارض الشاعر الرقيق المفتون بالعزة الإلهية بشعره ، العابد للجمال الرباني بمنظومه ، فهو شاعر العاطفة الذي يثير ما في القلب من الأحزان والمآسي التي طبعتها صروف الأيام . ويريك ابن الفارض ألواناً من شعره تلذ لك فتبحث عن الرقة والخيال وكل ما هو جميل في الكون من المبهجات . هو الشاعر المبدع الفيلسوف في وصف الحب والجمال . وهل من شيء سواهما أعز لدى المرء في الحياة الدنيا ؟ لا أظن شاعراً من الشعراء المتأخرين ممن سلك مسلك ابن الفارض في شرح معنى الحب والجمال وما يجلبان على المرء من سوء المصير إذا ما عسر عليه وجدانهما أو فقد أحدهما . فهو الذي افتن في وصف الحبيب والحنين إليه إذا ما غاب ، وفي وصف آلام الحب إذا ابتلى ، وفي خضوع الإنسان للجمال جمال الحبيب الذي يخلب اللب ويذيب الأحشاء . كل هذه الأوصاف تعمق ابن الفارض في تحليلها وسبكها في قوالب شعرية يعجز القلم عن نعتها . وها نحن أولاء نأتي باليسير منها لضيق المقام . أما مختصر ترجمته فهو الإمام العارف بالله الشيخ أبو حفص أبو القاسم عمر ابن أبي الحسن ابن المرشد بن علي الحموي الأصل ، المصري المولد والدار والوفاة ، المعروف بابن الفارض . ومعنى الفارض أنه يكتب الفروض للنساء على الرجال ، كما جاء في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان(١) . كانت ولادته بالقاهرة في الرابع من ذي القعدة من سنة ٥٧٦ هـ في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وله ديوان شعر لطيف وأسلوبه فيه طريف ظريف ؛ وقد أبدع وأجاد بالمعاني والعبارات الرقيقة ، وشع بشعره في الأفكار كالشمس في رائعة النهار ، وكان رجلاً صالحاً كثير الخير على قدم التجريد ، وجاور مكة المشرفة زماناً ، وكان حسن الصحبة محمودة العشرة . وقد قيل عنه إنه ينظم الشعر أحياناً في النوم ومنه هذان البيتان :

وحياة أشـــواقي إليـــ ك وتربة(٢) الصبر الجميل
ماستحسنت(٣) عيني سوا ك ولا صبوت إلى خليل

وهو من أهل الطريقة الراشدة وهي طريقة العرفان بالله ولهذا كني بالعارف بالله(٤)

وممن وصفه الكاتب المبدع المرحوم جبران خليل جبران بقوله : « وكانت روحه الظمآنة (كذا) تشرب من خمرة الروح فتسكر ثم تهيم سابحة مرفرفة في عالم المحسوسات حيث تطوف أحلام الشعراء وميول العشاق وأماني المتصوفين . ثم يفاجئها الصحو فتعود إلى عالم المرئيات لتدون ما رأته وسمعته بلغة جميلة مؤثرة » . ثم يقول أيضاً : « إذا نظرنا إلى فنه المجرد وما وراء ذلك الفن من المظاهر النفسية وجدناه كاهنا في هيكل الفكر المطلق أميراً في دولة الخيال الوسيع قائداً في جيش المتصوفين العظيم ذلك الجيش السائر بعزم بطيء نحو مدنية الحق . ثم يقول أخيراً كان يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراءها ، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية . هذا هو الفارضي ، روح نقية كأشعة الشمس ، وقلب متقد كالنار ، وفكرة صافية كبحيرة بين الجبال ، وفي شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون » اهـ(٥) . وتوفي بالقاهرة يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى سنة ٦٣٢هـ . ودفن في الغد حسب وصيته بالقرافة في سفح المقطم تحت المسجد المعروف بالفارض . وقد قال ابن بنته الشيخ علي في ذكره :

جز بالقرافة تحت ذيل العارض وقل السلام عليك ياابن الفارض
أبرزت في نظم السلوك عجائباً وكشفت عن سر مصون غامض
وشربت من بحر المحبة والولا فرويت من بحر محيط فائض

وقال أبو الحسن الجزار :

(١) جـ ١ ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ ط بولاق

(١) و (٢) و (٣) ديوان ابن الفارض ص ٢ ط ثانية في مصر وفي وفيات الأعيان لابن خلكان « وحرمة » وكذلك « لا أبصرت » جـ ١ ص ٤٨٤ طبعة بولاق (٤) البدائع والطرائف لجبران خليل جبران ص ١٢٩ مع صورة خيالية من ريشته

لم يبق صيِّب مزنة إلا وقد وجبت عليه زيارة ابن الفارض

لا غرو أن يسقى ثراه وقبره باق ليوم العرض تحت العارض[١]

أما ديوان شعره فيحتوي على مقطوعات وقصائد منها الموجزة والمطولة، متينة النظم دقيقة الحس رقيقة الشعور. وقد طبع ديوانه مرات وشرحه في جزأين رشيد بن غالب معتمداً على شرحي الشيخ حسن البوريني والعلامة الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي الصوفي. وبهامش الشرح كشف الوجوه الغر، لمعاني نظم الدر، وهو شرح تائية ابن الفارض الكبرى المشتهرة بنظم السلوك ومطلعها:

سقتني حميا الحب راحة مقلتي وكأسي محيامن عن الحسن جلت

ومنها أيضاً:

وكل الليالي ليلة القدر إن دنت كما كل أيام اللقا يوم جمعة[٢]

وعدد أبيات هذه القصيدة سبعمائة واثنان وستون بيتاً وتشغل جزءاً كبيراً من الديوان. ومطلع شرح الديوان: «الحمد لله الذي بفضله الفارض عمّر بيوت الأدب، وحسن للطبع شرح معان فيها بلوغ الأدب ... الخ»[٣]. ويقول المؤلف في آخر الكتاب نقلاً عن شرح الشيخ عبد الغني النابلسي: «كان الفراغ منه عشية يوم الإثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف من الهجرة». وقال مورخاً لتمام هذا الشرح.

ولابن الفارض الديوان لما حكى عقداً نظماً جوهريا

عنيت بشرحه هذا إلى أن تكامل أرخوه الفارضيا

وطبع الكتاب بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣١٠هـ. بعناية مصححة محمد الأسيوطي[٤]. أما منظوماته التي يفتتح بها ديوانه، وتدل على صناعة شعرية فائقة. فهذا مطلعها:

سائق الأظعان يطوي البيد طي منعما عرج على كثبان طي

وبذات الشيح عني إن مررت بحي من عريب الجزع حي

وتلطف واجر ذكري عندهم علهم إن ينظروا عطفاً علي[٥]

ومنها:

هل سمعتم أو رأيتم أسداً صاده لحظ مهاة أو ظبي[٦]

(١) ديوان ابن الفارض الطبعة الثانية بمصر ص ٢ (٢) الديوان المذكور ص ٢٣ و ٤٤ (٣) شرح ديوان ابن الفارض ج ١ ص ٢ (٤) شرح ديوان ابن الفارض آخر صفحة من الجزء الثاني (٥) ديوان ابن الفارض المذكور ص ٣ (٦) الديوان المذكور ص ٥

ومنها أيضاً:

أي ليالي الوصل هل من عودة ومن التعليل قول الصب أي

وبأي الطرق أرجو رجعها ربما أقضي وما أدري بأي[١]

ذهب العمر ضياعا وانقضى باطلاً إذ لم أفز منكم بشي

وهي طويلة. ولنأت الآن إلى مطلع قصيدة أخرى:

أرج النسيم سرى من الزوراء سحراً فأحيا ميت الأحياء

أهدى لنا أرواح نجد عرفه فالجو منه معنبر الأرجاء[٢]

وكذلك قصيدته التي يتغزل فيها بأراضي نجد لأنها موطن ليلاه فيقول:

أوميض برق بالأبيرق لاحا أم في ربى نجد أرى مصباحا؟

أم تلك ليلى العامرية أقبلت ليلاً فصيرت المساء صباحا[٣]

أما قصيدته في تحليل الحب وتعريفه فهي أشهر من نار على علم، وهي مضرب الأمثال. وهذا مطلعها:

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضنى به وله عقل

وعش خالياً فالحب راحته عنا وأوله سقم وآخره قتل

ومنها:

فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به شهيداً وإلا فالغرام له أهل[٤]

وأما الخمرة فهو يصفها وصفاً نادراً، وهو لم يذقها على رأيي ورأي الكثيرين. فتراه يصفها أبدع مما وصف الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس. ومن ذلك قصيدته التي مطلعها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

لها البدر كأس وهي شمس يديرها هلال وكم يبدو إذا مزجت نجم

ولولا شذاها ما اهتديت لحانها ولولا سناها ماتصورها الوهم[٥]

ثم يقول:

يقولون لي صفها فأنت بوصفها خبير أجل عندي بأوصافها علم

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم[٦]

وللشيخ علي سبط الناظم قصيدة مطولة نظمها تكملة لستة أبيات من نظم ابن الفارض. مطلعها:

نشرت في موكب العشاق أعلامي وكان قبلي بلي في الحب أعلامي[٧]

وسرت فيه ولم أبرح بدولته حتى وجدت ملوك العشق خدامي

(١) الديوان المذكور ص ١٣ (٢) كذلك ص ٦٨ (٣) كذلك ص ٧٢ (٤) كذلك ص ٧٨ وهي طويلة تشتمل على اثنين وستين بيتا (٥) الديوان المذكور ص ٨٢ (٦) كذلك ص ٨٣ وهي قصيدة رائعة تشتمل على أحد وأربعين بيتا، وفي أبياتها خيال رائع ووصف دقيق (٧) كذلك ص ١١٠ وهي ذات خمسة وعشرين بيتا

١ – الاسلام والفنون الجميلة

للأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

يمتاز الإسلام بأنه أوجد لنفسه بنفسه فناً جميلاً كيّفه عبادته، وبث فيه روحه، وغذّاه بتعاليمه حتى استقام عوده، ونضجت شخصيته، وتجلت للعيان مميزاته. ولا شك أنه لبيان هـذه الميزة ينبغي أن نقارن بين الإسلام وبين ما سبقه من الأديان من حيث موقف كل منها من الفنون الجميلة ثم نعقب على ذلك ببيان الطرق التي أتيح بها للاسلام أن يخلق فناً جميلاً إن اتفق مع الفنون السابقة عليه في بعض العناصر الزخرفية فقد اختلف عنها أشد الاختلاف في المبادئ الأساسية والاتجاهات التي سار فيها(١)

(١) لست أول من فكر في هذا الموضوع فقد سبقني إلى التفكير في كثير من نواحيه علماء من الأجانب أجلاء منهم: ماسينيون الفرنسي وكونل الألماني ولام السويدي وقد كانت آراؤهم ماثلة في ذهني وقت إعداد هذا البحث

فإذا عدنا إلى الوراء آلاف السنين لنشهد الإنسان وهو يتقلب في أطوار حياته المختلفة على ظهر البسيطة لوجدناه يكافح الوحوش ليعيش، ويحاربها ليوجد لنفسه بينها مكاناً أميناً يطمئن فيه على حياته، ولرأيناه ما كاد يلقي سلاحه، ويفرغ لنفسه بعض الشيء بعد هذا الجهاد المضني، ويأوي إلى كهفه ليستريح ويستقر به المقام في هذا السكن الجديد، ويرضي فيه حاجات جسمه من مأكل ومشرب وملبس حتى يقوم إلى جدران هذا الكهف يزخرفها وإلى آلات صيده يجملها ويزينها

ولسنا هنا بصدد الفصل في سبب اشتغاله بهذه الفنون الجميلة، فليكن الدافع إليها فيض النشاط الحيوي فيه، أو لتكن الغريزة هي التي أوحت إليه أن يحاكي بالرسم ما يراه في محيطه، أو ليكن اعتقاده في أن رسم الحيوان يقيده أو تكرار رسمه يكثره، أو رسمه وقد اخترق السهم أحشاءه يجعل صيده هيناً سهلاً عليه هو الذي حمله على هذا العمل، أو لتكن هذه العوامل مجتمعة هي التي جعلته يشتغل بهذه الفنون فلن يغير هذا من الحقيقة شيئاً: ذلك أن الإنسان قد عرف الفنون الجميلة قبل التاريخ واستخدمها في حياته. لقد وجد نفسه ضعيفاً أمام قوى الطبيعة: أمام قوى تعمل من وراء ستار، رأى براكين ثائرة يتطاير منها الحمم فتصيبه في نفسه وفي ماله، وسمع رعوداً صاخبة تكاد تصم بزمجرتها أذنيه، وأحس برياح عاصفة تدفع به أمامها، وتلقي في طريقه بأعظم الأشجار وأضخمها، ولمح بروقاً خاطفة ترسل إليه بضوئها فتملؤه خوفاً ورعباً. هذه المظاهر المختلفة التي لا يعلم سرها جملته يعتقد بوجود قوى عظيمة تؤثر في كيانه دون أن يراها. لذلك فكر في استرضائها على قدر ما سمح له به عقله المحدود فلجأ إلى الفن الجميل يستعين به على بلوغ مأربه فنحت التماثيل، وأقام الأنصاب ورسم الصور

وإذا كانت الفنون الجميلة من نحت وتصوير ونقش قد خدمت الإنسان قبل التاريخ في ديانته الساذجة البسيطة فقد خدمته أيضاً في العصور التاريخية، عند ما تعقدت الأمور الدينية بعض التعقيد

فلقد اعتقد المصري القديم بعودة الروح بعد موت الجسم، ورأى لزاما عليه أن يحفظ ذلك الجسم، وأن يضعه بعد موته في محيط يشبه محيطه في الحياة الدنيا، حتى تطمئن الروح وتأنس بجسمها إذا ما عادت إليه، فاستعان بالفن الجميل على تحقيق هذه

وللسبط أيضاً قصيدة أخرى مطلعها:

أبرق بدا من جانب الغور لامع ... أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

ومنها:

ولما تجلت للقلوب تزاحمت ... على حسنها للعاشقين مطامع
لطلعتها تعنو البدور ووجهها ... له تسجد الأقمار وهي طوالع(٢)

هـذا هو ابن الفارض ذو الشعر الرقيق الفائق، وشاعر الحب والجمال الروحانيين. هـذا هو المزين لعرش الحب العاقد أكاليل الجمال على رءوس الحوارى والحسان في خيال الجنان. هذا هو المعزي لأصحاب القلوب الدامية الهائمة في بيد الطبيعة الجميلة. هذا هو المكفكف لدموع البائسات المخفقات في نيل عذوبة الحب الذي هو رمز الحياة والطبيعة، يسود القلوب ويتحكم في الأنفس الرفيعة. ليكن لنا ابن الفارض عبرة الدهر في ميدان الرقة والعطف. وليكن ابن الفارض صورة للحياة الجميلة التي نستعذبها ونستذيقها أبد العيش. فليطب هانئاً في مثواه ومرقده. وليَنَم نومه الهادىء العميق؛ فلن يصغي إلى أنين العاشقين، ولن يسمع زفير المتيمين

يوسف يعقوب مسكوني

(١) ديوان ابن الفارض ص ١١٧، وهي آخر الديوان المذكور، وتشتمل على أربعة وخمسين بيتاً

العقيدة ، فزينت جدران القبور بنقوش تمثل حياة الميت ، ونحتت له تماثيل تمثله في حياته لتحل فيها الروح إذا ما انحل الجسم أو أصابه عطب ، وأودعت هذه التماثيل القبور مع الجثة ، كما وضع معها أيضاً ما كان يستعمله الميت في حياته ، وروعي في تشييد المدافن أن تكون منيعة لتحول بين هذه الأشياء وبين عبث العابثين ؛ ولتظل كذلك في حرز أمين . وإذا كانت عقيدة البعث قد استفادت من فنون النقش والتصوير ، فالدين المصري القديم بآلهته المختلفة ومعابده الكثيرة قد انتفع بهذه الفنون أيضاً إلى أبعد حد ، فنحتت التماثيل العظيمة للآلهة ، ونقشت جدران المعابد بالزخارف الرائعة ، وطليت بالألوان الزاهية الجميلة

ولم يختلف الحال في بلاد اليونان القديمة عنه في مصر الفرعونية ، إذ نجد أن الديانة اليونانية قد استعانت بفنون النحت والنقش والتصوير على إبراز فكرتها وتجسيم عقائدها ، إذ ابتدعوا لأنفسهم آلهة تشرف على شئونهم ، وترمز إلى مثلهم العليا ، وتخيلوا هذه الآلهة على صورة الإنسان وأفرغوا جهدهم في نحت تماثيل لها كانت أجمل وأروع ما أخرجته يد البشر ، خلدت ذكر اليونان على صفحة الزمن ونقشت أسماء آلهتهم في سجل القدر

وما كانت أمم الشرق القديمة من بابليين وأشوريين وحيثيين وغيرهم لتشذ عن مصر واليونان في هذا السبيل ، بل استخدمت هي الأخرى الفن الجميل في عبادتها الوثنية

واليهودية أول دين سماوي نادى بالوحدانية ؛ جاء والوثنية هي الدين الشائع بين أمم الأرض جميعاً ، والفنون الجميلة من حفر ونقش وتصوير ونحت هي عماد هذا الدين وقوامه ، فلكي يخرج الناس من ظلام الوثنية إلى نور الوحدانية كان من الضروري أن يحول بينهم وبين هذه الفنون . وتشددت اليهودية في هذه الحيلولة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً فحرمتها تحريماً صريحاً إذ جاء في التوراة في الأصحاح العشرين من سفر الخروج : « لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور » وقد قضى هذا النص على الفنون الجميلة عند اليهود قضاء مبرماً فلم تستخدمها كغيرها من الأديان التي سبقتها ولم تحاول أن تجندها لخدمتها . وإذا كانت الحضارة اليهودية قد بلغت أوجها في عهد داود وسليمان فتقدمت الصناعة ونهضت التجارة وازدانت فلسطين بما شيد في ذلك العهد من قصور ومعابد « ومحاريب وتماثيل وجفان كالجواب » أشار إليها القرآن الكريم في سورتي النمل وسبأ ، كما أشارت إليها أيضاً كتب التاريخ ، فقد استعان اليهود في ذلك بالأجانب من مصريين وفينيقيين وآشوريين

على أن اليهودية لم تنتشر ، وبقيت الوثنية دين الكثرة من سكان العالم ، وتأثر الرومان في ديانتهم الوثنية باليونان ، وكما خدمت الفنون الجميلة الدين اليوناني القديم ، كذلك خدمت الدين الروماني

وظهر الدين المسيحي ، واعتنق المسيحية كثير من بني إسرائيل ثم انتشرت في الامبراطورية الرومانية بسرعة عظيمة بسبب نضوج الفكر الإنساني ، وعدم ارتياحه إلى طقوس العبادة الوثنية . وقد قامت المسيحية تدعو إلى ترك الدنيا والتجرد منها والانقطاع إلى الآخرة والإقبال عليها . ولعل خير ما يترجم عن دعوتها هذه قول السيد المسيح في الأصحاح السادس من إنجيل متى . « لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون . » ومثل هذه المبادئ ليس فيها ما يشجع على ازدهار الفنون الجميلة لأنها تنكر جمال هذه الدنيا وتطالب بكبت ما في الإنسان من ميول وغرائز ، لذلك لم تبتدع المسيحية فناً جميلاً بل انتفعت بالفن القائم بين يديها ، وما الفن المسيحي المعروف إلا فن وثني لبس رداء المسيحية ، فهو فن مسيحي فقط باعتبار ما يؤديه من خدمات للدين المسيحي أو المسيحيين لا باعتبار أنه يعبر عن فلسفة هذا الدين لأن فلسفة هذا الدين — كما رأينا — قوامها الزهد والتقشف وكلاهما والفن الجميل على طرفي نقيض .

(يتبع)

محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

من آثار العراق

الجسر العبـــاسى

للأستاذ ميخائيل عواد

١ — تصدير

إذا جوّلنا فى أنحاء العراق شاهدنا عدداً لا يستهان به من الجسور المتنوعة الطراز، المتفاوتة الحجم، تعلو أنهاره ونهيراته، بينها القديم الأثرى، وبينها الحديث المكين؛ كما أن التاريخ ينبئنا بوجود جسور قديمة شيدت فى أشهر المدن العراقية المطلة على المياه، غير أن يد الزمان قد عبثت بها فجعلتها أثراً بعد عين

وإلى القارىء هذا البحث فى أحد الجسور القديمة فى العراق، نعنى به «الجسر العباسى» القائم بجوار بلدة زاخو فى شمالى العراق

ولقد استقصينا عدداً من التصانيف العربية القديمة والحديثة، طائفة من كتب الرحالين والسياح الفرنج؛ أملاً فى الوقوف على ما ينير السبيل أمامنا فى هذا الموضوع، غير أننا لم نعد من جميعها إلا بالنزر اليسير من العلم بأمر هذا الجسر. ولعل أهم ما وقفنا عليه ما دونه الرحالة الأثرى «بروسر» فى كتابه عن «المبانى الأثرية فى شمالى ما بين النهرين»[١]

ولهذا الجسر أسماء عديدة أطلقها الناس عليه فى ظروف ومناسبات مختلفة. من ذلك: الجسر العباسى، جسر العباسيات، جسر الخابور، جسر دلالى، جسر الإسكندر، جسر الحسنية

ويلاحظ القارىء أن اثنتين من هذه التسميات أطلقتا عليه بالنظر إلى موقعه: «فجسر الخابور» يشير إلى أنه ركب متن هذا النهير، كما أن «جسر الحسنية» يدل على أنه شيد عند بلدة الحسنية. أما سائر التسميات فقد أطلقت عليه بناء على ما شاع بين الأهلين هناك من الروايات والأساطير التى لا تدعمها الحقائق الراهنة ولا تؤيدها المستندات التاريخية

(١) Conrad Preusser : Nordmesopotamische Baudenkmäler Altchristlicher und Islamischer Zeit. (Leipzig, 1911, pp. 22—23).

٢ — موقعه

على نحو من ميل واحد شرقى بلدة زاخو ينتصب «الجسر العباسى» فوق نهير الخابور الذى ينبع من الجبال الممتدة فى جنوبى أرمينية[١]، ثم يسير متمعجاً بين ثنايا تلك الجبال حتى يصب فى دجلة فوق قرية «فيشخابور»[٢] على نحو من ٧٥ ميلاً شمالى الموصل؛ أى عند الحدود العراقية التركية.

وهذا الخابور هو المعروف فى المؤلفات العربية القديمة ب «خابور الحسنية» نسبة إلى البلدة المعروفة بهذا الإسم[٣]

وقد تطرّق البحّاثة المستشرق (لسترنج) فى كتابه الموسوم ب «أراضى الخلافة العباسية» إلى ذكر هذا النهير وجسره فقال: «إن هذا النهير كان يخترقه جسر حجرى لا تزال بقاياه ماثلة للعيان قرب قرية حسن آغا التى ربما تمثل المدينة القديمة. إن الحسنية التى كان فيها جامع تصلى فيه الجمعة قد وصفه المقدسى[٤] بقوله إنه موقع ذو خطر»[٥]

ويبدو لنا من كلام (لسترنج) أن الأمر قد اختلط عليه بعض الشىء، فلم يفرق بين الجسر العباسى الذى نحن بصدده، وبين جسر آخر ما زالت بعض معالمه ظاهرة للعيان، كان فيما مضى يعلو الخابور ذاته، ويطلق عليه «جسر كَيْشْتَه»[٦] بينه وبين الجسر العباسى نحو من ثمانمائة متر

ولا يزال الجسر العباسى صالحاً بعض الصلاح لمرور السابلة من فوقه؛ وقد كان فيما مضى المسلك الوحيد الذى تسلكه

(١) راجع مفصل جغرافية العراق لطه باشا الهاشمي «بغداد سنة ١٩٣٠، ص ١٣١ — ١٣٢»

(٢) سماها ياقوت الحموى «معجم البلدان ٣ : ٩٣١ طبعة وستنفلد» فيشابور، وقال إنها «بليد من نواحى الموصل من ناحية جزيرة ابن عمر، لهم فيه وقائع»

(٣) معجم البلدان «٢ : ٢٧٠، ٣٨٤». وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية مادة «خابور» أن «هذا النهير يخترق سلاسل الجبال التى تسمى اليوم «حربال» «فى الشمال»، و «زاخا» «فى الجنوب». وهذه الجبال الأخيرة أخذت اسمها من اسم مدينة «زاخو» التى كانت تعرف فى العصور القديمة باسم «آزوخيس» Azochis

(٤) أحسن التقاسيم للبشارى المقدسى «ص ١٣٩ ليدن»

(٥) G. Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate. p. 93

(٦) كيشته: قرية صغيرة على خابور الحسنية أسفل زاخو بينهما مسافة نصف ميل

القوافل حينما تقصد من الأنحاء الشمالية المختلفة ؛ أما « جسر كيسته » فلا أثر لقناطره اليوم ، لأن يد الدهر سطت عليها ، وعملت على تقويضها حجراً بعد حجر ، ولم تبق منها اليوم سوى ركائز قواعدها الحجرية المغروزة فى الماء

٣ – صفته

يبلغ طول الجسر العباسى ١١٤ متراً ، وعرضه ٤ أمتار و٧٠ سنتمتراً وهو يتقوم من خمس قناطر تتفاوت شكلا واتساعاً ، فأكبرهن تكاد تعلو عرض الخابور بكامله هناك ؛ إذ تبلغ فتحتها ١٦ متراً ، وارتفاعها عن مستوى سطح ماء الخابور فى أيام انتقاصه زهاء ١٥ متراً ، ومن هنا تتجلى لنا عظم المصاعب التى تجشمها البناؤون أثناء تشييدهم هذه القنطرة الواسعة ! ومن يلق نظرة على صورة هذا الجسر ير ريازة هذه القنطرة من الطراز المعروف ب « المسنم »

ثم يلى هذه القنطرة سعة ، قنطرة ثانية فتحتها ١٠ متراً ، على شكل يقرب من نصف الدائرة . أما الثلاث الباقيات ففتحاتهن أصغر من السابقة وهن على شكل أنصاف دوائر[1]

وطبيعى أن يؤدى هذا التفاوت فى اتساع القناطر إلى ارتفاع وسط الجسر وانحدار جانبيه حتى يتساوى وسطح الأرض عند حافتى مجرى النهر

ويلاحظ المرء أن ثلاثاً من هذه القناطر شيدت على يسار[2] القنطرة الكبيرة – باعتبار مجرى النهر – وواحدة فقط على يمينها[3] .

شُيد الجسر العباسى من حجارة مُزأَّمة ، مختلفة الحجم ، قليلة الهندام ؛ لكنها مرتبة بنظام ، وقد تلاحكت بعضها ببعض بالملاط القوى

(١) هذه القياسات مأخوذة من كتاب « برومر » المار الذكر

(٢) فى هذه الجهة من النهر يشاهد الجبل المعروف ب « جبل يخين »

(٣) فى هذه الجهة من النهر وعلى مقربة من الجسر قرية صغيرة تعرف ب « العباسية » على اسم الجسر

وقد يبدو هذا الجسر للناظر ، لأول وهلة بسيط التركيب ، ضعيف القوام ، لكنه بالرغم من مظهره هذا ، عاش قروناً طوالاً ، وعارك فيضانات الخابور المتدفقة من أعالى الجبال المحيطة بتلك البقاع ، ومياه الخابور ذات أمواج متلاطمة مزبدة ، وهى فى صراع دائم مع الصخور الصلبة التى تكوّن قعر النهر ، وهذا ما يسبب تيارات ودوّارات مائية سريعة تجعل الملاحة فيه كالمستحيلة

فوق هذه الأرض الصخرية القاسية شيد الجسر العباسى بقناطره الخمس ودعائمه الراسخة

وقد تطرقت العالمة الرحالة (جرترود بيل) إلى هذا الجسر فى رحلتها المعروفة « من مراد إلى مراد » ؛ لكنها قالت إنه يتألف من أربع قناطر[1] ، بينما هى فى الواقع خمس كما أسلفنا .

٤ – تشييده :

تضاربت الروايات فى أمر تشييد هذا الجسر ، وذهب الحدس والتخمين فى ذلك كل مذهب ، وما ذلك إلا لعدم وجود كتابة عليه تفصح عن زمن تشييده ، أو نقوش تسعف الباحث فى تقدير تاريخه ، فضلاً عن صمت المؤلفات القديمة وعدم ذكرها له .

ولأهالى تلك البقاع أسطورة يتداولونها فيما بينهم ، ومنهم سرت إلى بعض كتب الرحلات الأجنبية[2] . وخلاصتها أن هذا الجسر كان على ما يقولون قد سقط ثلاث مرات متتاليات عند محاولة تشييده ؛ حتى نفد صبر البنائين وضاقوا ذرعاً بالأمر ، فقال رئيسهم : يا قوم إن قائمته لن تقوم ما لم يُضَحَّ فى سبيله بدم بشرىّ ، على أن تكون ضحيته أول عابر طريق

وما هى إلا هنيهة وجيزة حتى أقبلت بنت عذراء اسمها (دلالى) فساقها القدر إلى أن تكون أول من يقع عليها القرار الذى أشار به رئيس البنائين ، فاستيقت تلك الفتاة قسراً وأُدمجت فى الحال ببناء الجسر وهى حية ، وترك طرف ذراعها ذات

(١) G. L. Bell : Amurath to Amurath. (2 nd ed., 1924 ; p.289).

(٢) راجع مثلا الرحلة المسماة Form Monte to Mosul. (p. 135)

السوار الذهبي بادياً للعيان ، ولـكن من كانت تلك الفتاة يا ترى ؟ إنها كانت ابنة رئيس البنائين نفسه . ولـكن هل لذاك الرئيس من محيص وقد سبق السيف العذل ! وللأهالي القاطنين تلك البقعة أشعار وأغاني باللغة الـكردية يتناقلونها صاغراً عن كابر ويتلونها في ذكر دلالى ، وفى عظم الفاجعة التي حلت بها ، وهذه الأشـعار ذات لون أدبي خاص ، وتعد من أجمل القطع الأدبية الشعبية

هذا ملخص الرواية الشائعة هناك رويناها دون أن نبدى رأياً فيها ، لأن المراجع القديمة الموثوق بصحتها لا تساعدنا فى هذا الشأن

وقد ذهب فريق من الـكتبة المحدثين إلى أن تشييد هذا الجسر كان قد تم على أيدي الرومان ؛ فإن هؤلاء القوم اجتازوا بشمالى العراق فى المائة الرابعة قبل الميلاد وعبّدوا مسالك عسكرية ومنها الجسور لتمر عليها جيوشهم الجرارة الذاهبة لمنازلة الفرس

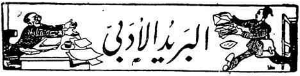
من ذلك ما زعمه (همرتن) بقوله فيه إنه « جسر رومانى فخم معقود فوق أحد روافد دجلة عند زاخو ... وصار يعرف على ممرّ الأزمان بجسر الإسكندر(1) » ؛ ثم ساق رواية دلالى المارة الذكر

ونحن نرى فى هذا الرأى تساهلاً كبيراً ؛ إذ يصعب صمود هذا الجسر مدة تزيد على الألفى سنة يقاوم فيها محن الزمان وتصرفات المياه

والذى انتهى إليه (بروسر) فى درسه هذا الجسر أنه لا شيء يوثق به فيما يخص تشييده ؛ ومع ذلك فقد ذهب إلى أنه شيد فى المائة السابعة للهجرة (بين المائة الثانية عشرة والثالثة عشرة للميلاد) ، وإنه بهذا الاعتبار من الآثار التاريخية الماثلة للعيان التى تعود إلى أواخر أيام الدولة العباسية .

(بغداد) **ميخائيل عواد**

(1) J. A. Hammerton : Wonders of the Past. (Vol. 3, p. 1130).



رسالة المساجد والنهوض بها

أصدر صاحب المعالى الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الأوقاف القرار الآتى :

تشرف وزارة الأوقاف على آلاف المساجد المنبثة فى الحواضر والمدن والقرى ، وهى بذلك تحمل لواء الإرشاد والتهذيب الدينى والاجتماعى

ورغبة منا فى النهوض بها وبالقائمين على شئونها نهوضاً يلائم تطور الزمن وأحداثه ، حتى تلاحق ركب الحضارة والمدنية ، وتحتل مكانها الذى كانت تحتله فى صدر الإسلام ، يشرق منها نور المدنية الإسلامية ، وتوطد بين جدرانها الألفة والمحبة بين المسلمين ، وتنمي نوازع الخير والهداية وأسباب الكرامة الحقة فى نفوس الشباب

ورغبة منا فى الوقوف على أقوم السبل المحققة لهذه الغاية ، سواء من الوجهة الدينية أو الثقافية أو الصحية أو العلمية ، رأينا تأليف لجنة من حضرات أصحاب الفضيلة والعزة : مصطفى صبرى أفندى شيخ إسلام تركيا سابقاً ، والدكتور إبراهيم بيومى مدكور ، ومحمد محمد الوكيل بك العضو بمجلس الشيوخ ، ومحمود لطيف بك عضو مجلس النواب ، والدكتور عبد المجيد رمزى مدير الصحة الاجتماعية ، وأمين عبد الحافظ بك مدير الشئون القروية ، والأستاذ أحمد فهمى إبراهيم مدير قسم الهندسة بوزارة الأوقاف ، والدكتور منصور فهمى بك مدير دار الكتب ، والشيخ محمد البنا مدير إدارة الشئون الدينية برياسة مجلس الوزراء ، ومحمد أحمد جاد المولى بك المفتش الأول للغة العربية ، والشيخ عبد الوهاب خلاف الأستاذ بجامعة فؤاد الأول ، والشيخ سيد زهران مدير قسم المساجد ، والأستاذ عبد الحميد خضر ، والدكتور إبراهيم اللبان المفتشين بوزارة المعارف

على أن تكون مهمة هذه اللجنة بحث ما يأتى :

١ — الوسائل التى تحبب الناس فى الإقبال على بيوت الله وقضاء أوقات فراغهم فيها ، وبحث العوامل التى أدت إلى انصراف فريق من الناس عن المساجد ، ورسم أقوم السبل لعلاجها علاجاً ناجماً

٢ — وضع دستور للارشاد فى المساجد من دروس وخطب ومحاضرات ، وتنسيقه بحيث يوائم الظروف والمناسبات والحوادث والبيئات

٣ — طريقة اتصال وزارة الأوقاف بالوزارات الأخرى لتقف على ما لديها من مشروعات اجتماعية وثقافية وصحية واقتصادية وزراعية ووقائية ليكون وعاظ المساجد لسان الحركة الإصلاحية فى جميع هذه الشئون

٤ — المنهاج الذى يشيع الرغبة بين النساء فى الإقبال على المساجد لتغذيتهن بالثقافة الدينية

٥ — اختيار الطراز الذى يراعى عند إنشاء المساجد لتتوافر فيها وسائل الراحة والصحة والترغيب

٦ — النظر فى شئون مرافقها الصحية وإمكان تزويدها بالمناسل والحمامات والمياه الساخنة ، وإذا تيسر ذلك فهل تشرف عليها وزارة الأوقاف أو وزارة الصحة ؟

وأملى أن تنتهى اللجنة من تقديم تقريرها فى بحر شهر من تاريخه .

حول « زيح الفقراء لا بحل مشكلة الفقر »

تفضل الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى العدد الأخير من مجلة « الرســالة » الغراء ورد على بعض ما كتبته فى صفحة « الأسبوع حوادث وخواطر » بمجلة آخر ساعة ، وتفضل أيضاً وسمح لى فى حديث معه بالرد على رده ، واختار لى صفحات « الرسالة » ميداناً لهذا الرد

وخلاصة الموضوع الذى كتبت فيه هي (الفقر والحرية) ، وهل يمكن أن يتمتع الفقير بحريته رغم فقره ؟ وهل يمكن وضع نظام اقتصادى جديد غير النظام الحالى يقلل من عدد الفقراء ومن عدد الأغنياء ؟

وقد سبق لى أن ناقشت شخصياً مع الأستاذ العقاد فى هذا الموضوع ، وكان فى مناقشته لى قد فهمنى فهماً خطأ ، إذ ظن أنى أدين بمبدأ سياسى معين ، ولذلك خص الجزء الأكبر من رده

على صفحات الرسالة لهدم المبادىء الحديثة كالنازية والشيوعية .

هـذا فى حين أنى صرحت له مراراً ، وها أنا أعود إلى التصريح مرة أخرى ، أنى لا أدين بمبدأ معين ، ولم أتقيد إلى اليوم بفـكرة كاتب من الـكتاب السياسيين العالميين ، وعلى الأخص (كارل ماركس) . فأنا لا زلت شاباً فى الرابعة والعشرين من عمرى جمل همه مشاهدة الواقع والبحث عن الحقيقة والفـكرة التى تنطبق على هذا الواقع ، سواء كانت فى النازية أو الشيوعية أو الديمقراطية ، أو حتى فى الفوضوية ! فدعنا من كل هذه المبادىء وتعال إلى الواقع . أليس فى البلد من يملك عشرة آلاف فدان ، فى حين أن فيه عشرة آلاف فقير لا يملـكون ثمن رغيف وطبق من الفول المدمس ؟

أليس فى البلد من يملك عشر سيارات ، فى حين أن فيه عشرة آلاف يسيرون حفاة ؟

أليس فى البلد من يموت بالتخمة وضغط الدم ، وفيه من يموت بالجوع وفقر الدم ؟!

هذا هو الواقع ، وهذا ما ناديت بإصلاحه ، ولم أقل كيف يتم هـذا الإصلاح ، ولم أشر باتباع مبدأ من المبادئ التى أشار إليها الأستاذ العقاد

ولـكن الأستاذ العقاد يقول أنه ديمقراطى يدين بالديمقراطية لأنها تصون الحرية الفردية . فلأ كن مثله ديمقراطياً ، ولنبحث سوياً بين النظم الديمقراطية المتبعة فى مختلف الدول عن طريقة لإصلاح الواقع الذى تحدثت عنه

وأعتقد أننا لن نتعب طويلاً فى هذا البحث . فالطريقة التى نطلبها متبعة فعلاً فى انجلترا زعيمة الأمم الديمقراطية

فى انجلترا الآن قربوا الفارق بين الغنى والفقير ، حتى أصبحا متساويين تقريباً . وذلك عن طريق فرض ضرائب مرتفعة على الأغنياء بلغت فى بعض الأحيان ٩٠٪ ؛ فالغنى الذى يصل دخله اليومى إلى مائة جنيه (مثلاً) أصبح لا يملك من هذا المبلغ إلا جنيهاً واحداً يصل به إلى مرتبة الرجل العادى

قد يقول الأستاذ العقاد أن هذا ظرف استثنائى فرضته الحرب ، وأن هذه الضرائب تستغل فى تشغيل العاطلين – وهى أهم الطرق للقضاء على الفقر – ولـكن تشغيلهم فى المصانع الحربية ، وهذا ما لا يرضى به العقاد

ولـكن لماذا لا يظل هـذا النظام ثابتاً حتى بعد انتهاء الحرب ؟ ولماذا لا تستغل هـذه الضرائب فى سبل أخرى غير إذكاء نار المذبحة الـكبرى ؟ لماذا لا تستغل فى فتح الطرق وإنشاء مصانع سلمية ورفع أجور العمال ... الخ . من الوسائل الـكثيرة التى فـكروا فيها قبل الحرب وكان ينقصهم المال لتنفيذها ؟

* * *

إذاً فهنالك طريقة ديمقراطية للقضاء على الفارق الاقتصادى بين الطبقات ، أو على الأقل لتخفيفه ، وهى طريقة ترضى الأستاذ العقاد ، لأنها لا تتصل بالنازية أو الشيوعية ، ولأنها ديمقراطية ، والديمقراطية لا تقيد حرية الفرد التى يدافع عنها أستاذى الـكبير

فإذا ما وصلنا إلى هذا الحد واتفق رأيانا عند هذه النقطة . فلا داعى للحديث عن الحرية ، ومدى ارتباطها بالفقر ، وهو الموضوع الذى كان أساساً لهذه المقالات .

إحسان عبد القدوس

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)